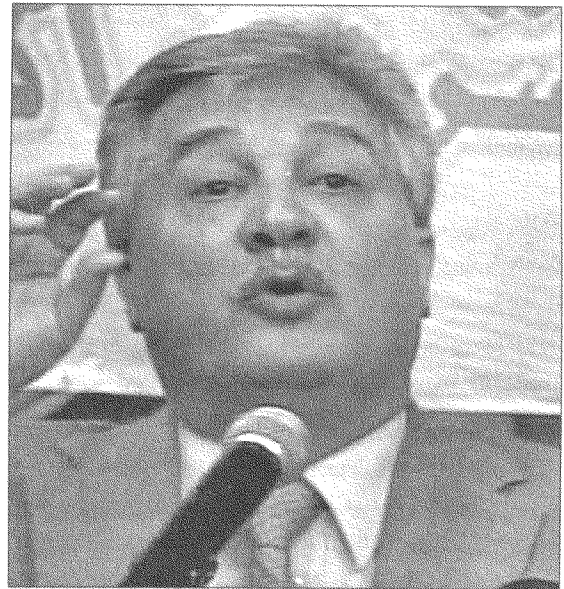
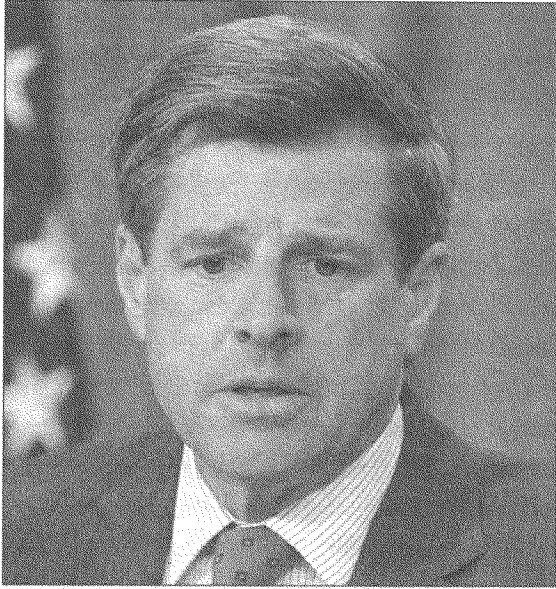




## اليسار العربي: أزمة المشروع، أم أزمة القائمين عليه؟

□ هشام البستاني



وجودية/ معرفية (انسلاخ طبقي كامل) أو عن وعي ناتج من تهميش وقمع اقتصاديين/ اجتماعيين حقيقيين (وعلي طبقي). لهذا السبب، يأخذ خطاب اليسار هنا شكلاً ليبرالياً اجتماعياً لا أكثر؛ في حين تميل الفئات المسحوقة إلى المحافظة الاجتماعية والدينية، وتشكل الجمهور العريض للتيارات الدينية. يضم المشروع العلماني/ الديمقراطي/ اليساري طيفاً واسعاً من الأطروحات المتقاربة. لذلك سأحصر هذا المقال بالتيار «اليساري»، وهو بدوره يضم طيفاً واسعاً من الشيوعيين والقوميين والنقديين بشكل عام. وقد كشفت الانتفاضات الشعبية العربية عن الأزمات الكبرى والبنوية التي تعصف بهذا التيار، وعن تناقضاته وأدعاءاته، وخوفه من حركة التاريخ، وتبعيته للنظام العربي أو ارتكازه في تحقيق «مشروعه» إلى تدخل القوى الدولية التي يُفترض فيه أن يناهضها. ومن واقع هذه الانتفاضات (التي لم يكن للأحزاب اليسارية أو غيرها، عامّة، دور كبير في إشعالها أو في صيرورتها اللاحقة)، نحدّد مجموعة معطيات قد تشكل مدخلاً لفهم الأزمة وتجاوزها.

الحديث عن المشروع العلماني/ الديمقراطي/ اليساري في العالم العربي حديث عن أزمة. وتتجلى هذه الأزمة من خلال أمرين:  
الأول هو التساؤل عن وجود هذا المشروع بشكل متكامل، لا كمجرد مجموعة من المقولات المفككة، والمتناقضة بعضها مع بعض ومع الأساس الذي تدعي الانبثاق عنه. ونستدل على هذا الأمر من خلال التيارات والأحزاب والأفراد الذين يحسبون أنفسهم على هذا المشروع لكنهم يتعاملون معه بنفعية وشعبوية وانتقائية، مبتعدين عن جوهره وجدليته، ومستكفين عن خوض الصراعات الكبرى من أجل إنتاجه، ومنقسمين عن القيم التي يدعون إليها.

الثاني هو ضعف نفاذ هذا المشروع ومقولاته إلى عمق البنى الاجتماعية ذات المصلحة في إنجازها، وانعدام وجود حامل اجتماعي يتبنى قيمه. فأغلب من يحسبون أنفسهم جزءاً من هذا التيار هم من الطبقة الوسطى، وينجذبون إلى «الانفتاح» والتحرر الاجتماعي الجزئي، من دون أن ينجم هذا الارتباط عن أزمة

## – الانتفاضات العربية –

اعترفت الأحزاب اليسارية التي نشأت على فكرة «مناهضة الاستعمار، بمخرجات الاستعمار المباشرة (الدولة القطرية)، وصارت تتقبل المواقف المناقضة لفكرة وجودها باعتبارها «خصوصيات».

### النزوع نحو التفسخ والانفصال

ربما عانت تنظيمات اليسار العربي أكبر عدد من التفسخات والانفصالات. فالحزب الشيوعي السوري صار حزبين، سورياً ولبنانياً، عام ١٩٦٤؛<sup>(١)</sup> والحزب الشيوعي الأردني انفصل لاحقاً إلى حزبين، أردني وفلسطيني؛<sup>(٢)</sup> وحركة القوميين العرب انقسمت إلى ثلاث جبهات فلسطينية على الأقل؛ وحزب البعث صار حزبين حاكمين متقاتلين في سورية والعراق، بل اصطف الأول مع «العدو القومي» (إيران) في حربه على «الشقيق القومي» (العراق) في حرب الخليج الأولى، ثم حاربه تحت قيادة «العدو الإمبريالي الأميركي» في حرب الخليج الثانية. إضافة إلى ذلك فإن العمل اليساري ميوء دائماً بـ «الخصوصيات القطرية»، يشرعن بها التقسيمات الاستعمارية باعتبارها ذات طبيعة متميزة. هكذا اعترفت الأحزاب اليسارية التي نشأت على فكرة «مناهضة الاستعمار» بمخرجات الاستعمار المباشرة (الدولة القطرية)، وصارت تتقبل المواقف المناقضة لفكرة وجودها باعتبارها «خصوصيات». فمثلاً تقبلت معظم الأحزاب الشيوعية العربية وجود الحزب الشيوعي العراقي في «مجلس الحكم» الذي أنشأه الاحتلال الأميركي في العراق، ولم تقم بنقد هذا الموقف؛<sup>(٣)</sup> وما زال الحزب شريكاً منذ ذلك الحين في «العملية السياسية» التي نشأت وتستمّر برعاية الاحتلال! مثال صارخ آخر هو الموقف من النظام السوري؛ فالعديد من اليساريين (والقوميين) لم يتوانوا في دعم هذا النظام، الذي ينطبق عليه ما ينطبق على بقية الأنظمة العربية من رذائل (كالفساد والقمع والتوجه نحو لبرلة الاقتصاد والاعتراف بشرعية وجود إسرائيل)، بحجة أنه حالة خاصة من «الممانعة».

### الضعف النظري العام وضعف الإنتاج المعرفي

نشأ اليسار في العالم العربي في سياقات التحرر من الاستعمار، وتشكّل خطابُه أثناء مرحلة «التحرر الوطني» بعد الحرب العالمية الثانية وصعود الاتحاد السوفيتي في مواجهة الولايات المتحدة. لكن هذا الخطاب لم يتطور لعدة أسباب، منها: أ) عدم إنجاز التحرر الوطني حتى الآن، وذلك لاستحاليته موضوعياً في حدود أقطار صممها الاستعمار لتكون، سلفاً، تابعة، ومشوهة اجتماعياً، ومفرغة من إمكاناتها التحررية. ب) عدم بروز مفكرين، باستثناء مهدي عامل وسيمير أمين وحفنة آخرين، يفوضون في البنى والتشكيلات الاجتماعية والاقتصادية ويحددون الفئات ذات المصلحة في التغيير. ج) البنية القمعية الستالينية للأحزاب اليسارية العربية التي ابتعدت عن تمكين التفكير النقدي والنقاش النظري، واقتصرت التثقيف الحزبي في أحسن الحالات على ترديد توجهات المكتب السياسي والأمين العام بصفتها قرارات ينبغي التعامل معها كما يتعامل أتباع التيارات الدينية مع تفسيرات مشايخهم للنصوص الدينية.

الأصل أن ينجم الخطاب السياسي عن أرضيات معرفية، والأصبحت الممارسة السياسية عشوائية، مزاجية، غير منتجة على المدى الطويل. ونستطيع أن نرى تأثير ذلك في الانتفاضات العربية: ففي غياب أرضيات معرفية للحرك الجماهيري، وفي غياب تنظيم قادر على تحقيق هذه الأرضيات، تصل الانتفاضات إلى التآزم، ولا تستطيع «إسقاط النظام» لعدم وجود نظام بديل! كما نستطيع أن نرى كيف تسلل احتقار «التنظير» إلى الأجيال الجديدة من النشطاء، وصاروا يريدون أن «يتحركوا في الشارع» فقط من دون «إضاعة الوقت في التنظير»، متناسين أن التنظير هو الذي يحدد هدف أي تحرك، وإلا غدا عشوائياً وقابلاً للتوظيف من قبل الخصوم.

(١) «تاريخ الحزب الشيوعي السوري»، صحيفة النور (أسبوعية يصدرها الحزب الشيوعي السوري الموحد)، ٢٩/١١/٢٠٠٧.

(٢) مجلة السجل (الأردن)، ١، حزيران ٢٠١٠.

(٣) وهو ما أدى في أحد تدايحاته إلى انشقاق في الحزب الشيوعي الأردني عام ٢٠٠٥.

## خطأ ارتباط اليسار بالقومية العربية

وفي حين يخرج يساريو العالم في تظاهرات وفَعَالِيَّات مؤبَّدة للحقوق العربية (فلسطين، العراق، انتفاضات الربيع العربي)، يندر أن تخرج مظاهرات عربية مؤبَّدة لقضايا شعوب أخرى في العالم. كما يندر أن يتبنَّى اليسار العربي قضايا مثل حقوق العمَّال الوافدين، أو عاملات المنازل الوافدات.

الخطاب القومي انزعالي في جوهره. فعلى الرغم من أن عصمت سيف الدولة، مثلاً، يبدأ تعريفه للقومية بأنها «لا تعني... الانعزال عن القضايا التي تمس المجموعة الإنسانية ككل أو أية مجموعة إنسانية منها»، فإنه يؤكد هذا الانعزال حين يحدِّد الشراكة في القضايا الإنسانية «بقدر ما تؤثر في الوجود القومي وحرركته» - أي إن الاعتبار الإنساني يتحدَّد بمعايير المصالح القومية لا العكس. وهو يؤكد أن «الوجود القومي مجرد وجود خاص. فهو إضافة إلى، وليس انتقاصاً من، وجود الجماعات الإنسانية الأخرى. وهكذا تكون "القومية" علاقة قبول واحترام للوجود الخاص لكل مجتمع من المجتمعات الإنسانية»<sup>(٢)</sup> - وهو بهذا يعرف الإنسانية بأنها مجموعة من دوائر «الوجود الخاص» لكل مجموعة قومية، وهو مفهوم انغلاقي ينطبق على أي دائرة من دوائر الوجود الانغلاقي، مثل الطائفة أو العشيرة.

والقومية في مقولاتها حول «الأمة» لا تحمل بعداً طبقيّاً واضحاً (تمييزاً بين المضطهد والمضطهد)، وهي تواجه فراغات معرفية كثيرة بدليل استعارتها النظام الاقتصادي الاشتراكي والعلمانية أول الأمر، ومن ثم تحوّلها إلى الليبرالية واقتصاد السوق في بعض النماذج والحملات الإيمانية والمؤتمرات «القومية الإسلامية» في نماذج أخرى.

لهذا، عمل الخطاب القومي على توليد الفاشية الإثنية (في مواجهة الفرس والأتراك والأكراد حالياً) والقُطرية (في الأردن مثلاً) انتقل بعض «القوميين» و«اليساريين» إلى الدفاع عن الدولة القطرية وهويتها وإلى تعزيز الانقسام المفبرك بين الأردنيين من أصول شرق أردنية والأردنيين من أصول فلسطينية، خصوصاً بعد الانتفاضة السورية).<sup>(٣)</sup> وأدى ذلك إلى تعزيز الانقسامات الإثنية والطائفية والمناطقية والعشائرية، وسهّل استغلالها من قبل الأنظمة العربية أو القوى العالمية.

هكذا فشل اليسار (بتأثير الطروحات القومية) في التأسيس لمشروع تحرريّ يضمن العدالة لجميع شعوب المنطقة العربية، بما فيها ما يُطلق عليها اسم «الأقليات العرقية» كالأكراد والأمازيغ، الذين هم مكون أصيل من مكونات المنطقة وجزء أساس من مشروع تحررها.

كثيرة هي الدراسات التي تناولت أثر نماذج الدولة القومية الأوروبية، التي هي تعبير عن مصالح الرأسمالية ضمن نطاق جغرافي محدّد، في نشوء الحركة القومية العربية منذ أواسط القرن التاسع عشر. التيار القومي العربي لم ينشأ استجابة لبرجوازية رأسمالية وطنية تلمح إلى مد سيطرتها على جغرافيا محدّدة تشكل سوقها القومية. ولذلك - وخارج مشاعر الضيق من عسف الدولة العثمانية والرغبة في الاستقلال عنها، وخارج محدّدات التاريخ المشترك واللغة المشتركة و«الشعور» القومي - لم ينبثق التيار القومي العربي عن ضرورات مادية تاريخية، ولم ينتج فكراً بعيداً عن الرومانسيات والمشاعر النبيلة والمحدّدات الذاتية والطموحات المستقبلية إلى بناء «دولة موحّدة قوية» تضع العرب مرة أخرى في مكانهم الصحيح على خارطة العالم السياسية والاقتصادية (على اعتبار وجود دولة عربية قوية في الماضي هي الدولة الأموية على الأغلب).

هي أحلام القوة والإمبراطورية، إذن، لا أحلام العدالة والمساواة بين البشر. وحتى الآن، لا يستطيع القومي العربي أن يجيب على تساؤل: مَنْ هو العربي؟ وكيف «يتميز» عن غيره؟ وما هو الموقف من غير العرب الذين يشكلون جزءاً أصيلاً وطبيعيّاً من المنطقة؟ إن أي إجابة منطقية على هذه الأسئلة ستؤدّي إلى إلغاء القومية من أساسها بحيث تنتقل الإجابة إلى المرعب الإنساني، أو إلى اعتماد المفهوم العرقي أو الثقافي لتعريف القومية العربية - وكلاهما مفهومان إقصائيان يقودان إلى الهيمنة والفاشية.

الحقيقة أن الخطاب القومي العربي يستبطن عنصريّة واستصغاراً لغير العرب. فالقومية دعوة إلى تأكيد هوية الأمة وشخصيتها الخاصة المميّزة أمام الغير؛ وهي فكرة وحركة نضالية تهدفان إلى بناء دولة خاصة بالعرب.<sup>(٤)</sup> وبالإمكان التقاط هذا الأمر بوضوح عندما يأتي الحديث عن الإيرانيين (الذين تتم شيطنتهم بمصطلحات «الصفويين» و«الفرس» و«البويهيين») أو الأتراك (يشيطنون بمصطلحي «الطورانيين» و«السلاجقة») أو الأكراد (الذين يصوِّرون على أنهم عملاء خالصون لـ«إسرائيل») أو الأمازيغ (الذين تُخصّص دراسات كاملة لإثبات أصلهم العربي وكأنّ الإنتماء إلى العرق العربي سيزيدهم شرفاً وسيقنهم بالتخلي عن ثقافتهم لصالح مقولات القومية العربية). كما يعادي الخطاب القومي، في أغلبه، اليهود واليهودية، لا الصهاينة والصهيونية، ويُعتبر (شأنّ التيارات الدينية) أن الصراع في فلسطين هو مع اليهودية كدين لا مع الصهيونية كحركة استعمارية استيطانية.<sup>(٥)</sup>

(١) هاني الهندي، الحركة القومية في القرن العشرين (دراسة سياسية) (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٢).

(٢) إبراهيم علوش، «الصهيونية هي الابنة الشرعية لليهودية».

<http://www.freearabvoice.org/arabi/maqalat/AISohyoneyehHeyaAlebnAlshar3eyalelyahoodeyeh.htm>

وموفق محادين، «الصهيونية خلفنا واليهودية أمامنا»، العرب اليوم، ٢٠٠٧/٧/٨، [http://www.old.alarabalyawm.net/pages.php?articles\\_id=1831](http://www.old.alarabalyawm.net/pages.php?articles_id=1831)

(٣) عصمت سيف الدولة، نظرية الثورة العربية، ج ٣ (بيروت: دار المسيرة).

(٤) حول نقد هذا التيار، أنظر المقالة المهمة لجوزيف مسعد، «الأردن بين الوطنية والشوفينية»، الأخبار، ١٠ أيلول ٢٠١٢، <http://al-akhbar.com/node/166751>

## — الانتفاضات العربية —

يعاني اليسار العربي رهاب المثليين، ويصادر حقهم في خياراتهم الجنسية، إن لم يعتبرهم (شأن التيارات الدينية تماماً) مؤامرة إمبريالية/يهودية

أخرى مع الوثيقة التي حَصَرُوا للمشاركة بناءً عليها، إضافة إلى المؤامرات المتعلقة بالمواقع «القيادية». ولم يبقَ من «التحالف» سوى اللائحة الإلكترونية التي تحمل اسمه. المهم في هذا الموضوع هو أن الفقرة الثانية من الوثيقة نصت على ما يأتي: «الطبقات الحاكمة والنظم المسيطرة في الأقطار العربية... تابعة للإمبريالية وتحقق مصالحها، ولا يمكن أن تكون في المعسكر المناصر لحقوق الشعوب. وما يسمى 'إصلاحاً' تريد تنفيذه هو كذبة كبرى. وعليه، فإنّ النضال ضدها هو جزء هام من النضال ضدّ الإمبريالية.»

هكذا كان الفهم الاستراتيجي اليساري (والقومي) لواقع الأنظمة العربية منذ أواسط القرن الماضي. لكن، إن راجعنا الآن قائمة الموقعين على الوثيقة، وتابعنا ما يُرسل حاليًا إلى قائمتها الإلكترونية، فسنعجب من مدى التغير في «الفهم الاستراتيجي» الذي أصاب بعض المشاركين في المشروع حين صار النظام السوري نظامًا مقاومًا (لا ممانعًا فقط)، وتحوّلت الانتفاضات العربية (باستثناء الانتفاضة البحرينية) - وبأثر رجعي (أي بعد الانتفاضة السورية) - إلى مؤامرات أمريكية إسرائيلية سعودية قطرية، وتحوّلت شعوبٌ بأكملها (كان ينتظرها اليساريون بشغف لتثور) إلى شعوبٍ عميلة تُدار من الخارج!

هكذا تحوّل «يساريون» («قوميون») إلى مدافعين شرسين لا عن النظام السوري فحسب، بل أيضًا عن الدولة القطرية العربية وأنظمتها التي طالما عارضوها بصفتها إفرات لمرحلة الاستعمار. وصار سقوط النظام السوري (وسقوط «الدولة» القطرية العربية بشكل عام) يعني «الفوضى»، وكأن النظام الرسمي العربي لم يكن فوضى مضغوطة بقوة القمع. وصار للنظام العربي «دولة»، رغم أنّ «الدولة» العربية المعاصرة لا علاقة لها بالدولة المعاصرة: ليس

## الخجل من المشروع الاجتماعي لليسار، والحريات الاجتماعية، وحرية الرأي والتعبير

الأصل في اليسار أنه مدافعٌ شرسٌ عن الحريات الاجتماعية وحرية الرأي والتعبير. لكن، ولعدة اعتبارات،<sup>(١)</sup> يخجل اليسار من برنامجه الاجتماعي، هذا إن كان مقتنعًا به أساسًا (أستنتي هنا اليسار في المغرب العربي). وهو يخجل من الدفاع عن حرية الرأي والتعبير، خصوصًا في ما يتعلق بالأديان الإبراهيمية ونقدها. حرية الرأي والتعبير تأخذ عنده معنىً سياسيًا فقط. لا حديث عن إعادة إنتاج علاقات القوة في الوحدات الاجتماعية مثل الأسرة، ولا عن نقد الدين بشكل واضح وتاريخي ومفصل.

وفوق كل ذلك، يعاني اليسار العربي رهاب المثليين، ويصادر حقهم في خياراتهم الجنسية، إن لم يعتبرهم (شأن التيارات الدينية تمامًا) مؤامرة إمبريالية/يهودية.<sup>(٢)</sup> هذا على الرغم من أنّ أغلب تنظيمات المثليين في العالم تؤيد قضايانا وتشارك بفعالية في الأنشطة المؤيدة لفلسطين والعراق (قبل الاحتلال وأثناءه) وما إلى ذلك.

## الدفاع عن النظام العربي ودولته القطرية

في العام ٢٠٠٥، وانطلاقًا من استحالة إنجاز مشروع تحرر يستند على الدولة القطرية التي صمّمها الاستعمار لإفراغها من إمكاناتها التحررية، حاولت مع رفاق، من مختلف الأقطار العربية، إطلاق شكل تحالفٍ مفتوحٍ مناهض للإمبريالية: «نحو تحالف شعبي عربي مقاوم». وعلى إثر اجتماع تأسيسي عُقد في القاهرة، أطلقت وثيقة تحدد أرضيته الفكرية/السياسية،<sup>(٣)</sup> وقع عليها عشرات الأفراد والتنظيمات اليسارية والقومية. واستمر العمل على هذا المشروع حتى عام ٢٠٠٨، حين انتهى نتيجةً لكسل بعض المجموعات المشاركة، ولمحاولة بعضها تجميع العمل لصالحها، ولعدم انسجام

(١) أهمها التحالف ما قبل الانتفاضة السورية مع التيار الديني، وعدم الرغبة في الاصطدام بـ «المفاهيم العامة للمجتمع» (تندكر هنا الخطاب الرسمي عن وجوب عدم خرق الآداب العامة والنظام العام!).

(٢) موفق محادين، «المثلية الجنسية»، العرب اليوم، ١٦/٨/٢٠١٠، [http://www.old.alarabalyawm.net/pages.php?articles\\_id=12884](http://www.old.alarabalyawm.net/pages.php?articles_id=12884)

(٣) <http://www.aohrs.org/modules.php?name=News&file=article&sid=434>

فيها إلا إرادة الحاكم، بلا قانون، بلا مؤسسات حكم، بلا عدالة، بلا أي شيء؛ بل إن رئيس «الجمهورية» صار يورث ابنه الجمهوريّة! أهذه دول أم فوضى؟ عمّ يدافع «اليساريون» («القوميون»)؟ إذا؟ ولأنّ المشروع اليساري لا يمتلك مشروعاً فكرياً مؤسّساً، فقد صار كل من يريد أن يقول عن نفسه إنه يساريّ يعامل كذلك ولو تناقضت أطروحته مع مبادئ اليسار الأساسية. هكذا صرنا نرى يساريين يطالبون بعزل اللاجئين السوريين في الأردن،<sup>(1)</sup> وبمنعهم من النشاط السياسي، وبأن تتدخل الدولة (أي النظام الأردني) من أجل ضبط ذلك بالقوة.

## فشل التنظيمات اليسارية في إشعال الانتفاضات والمساهمة في تحولاتها

لم تكن للتنظيمات اليسارية مساهمة رئيسية في الانتفاضات العربية، بل العكس: فبعد سنوات من العمل «الشرعي» ساهمت في خداع الناس بإمكانية «التغيير من الداخل»، وفي إسباغ هالة من الشرعية والديمقراطية الكاذبة على ممارسات الأنظمة القمعية والتفقيّة والفاصلة.

جاءت الانتفاضات عفوية، وتصاعدت بشكل تضخمي، وبادرت بها شريحة لم تكن على بال أحد (شباب الطبقة الوسطى) ولطالما اتهمت بأن لا أمل يُرجى منها. هكذا أحسّ «اليسار» بالعجز، واكتشف خواء المعرفي والسياسي والإستراتيجي، واصطدم بضعفه التنظيمي وانعدام امتداده الجماهيري وعدم قدرته على المساهمة في صناعة الواقع الجديد. فما العمل؟ تحوّل إلى اتهام الانتفاضات العربية بالعمالة، وحولها إلى جزء من مؤامرة كونيّة، وبات يناضل من أجل بقاء النظام الرسمي العربيّ و«دولته» القطرية، والجيش التي كانت توصف بأنها لحماية حدود «إسرائيل» ولحماية الأنظمة العربية صارت، وبضربة تحويّلة يسارية، الضامن الأول للوطن وتماسكه؛ وصارت دول «سايكس-بيكو» وأنظمتها العميلة دولاً ينبغي الدفاع عنها في وجه الفوضى؛ بل وصل الأمر بأحدهم إلى إنكار التاريخ في ما يتعلق بالنظام السوريّ، فأضحى نظاماً ملائكياً لم يساعد على ارتكاب مجزرة تل الزعتر، ولم يذهب إلى حضر الباطن لغزو العراق تحت قيادة الولايات المتحدة، ولم يتحالف مع حلفاء «إسرائيل» في لبنان أثناء الحرب الأهلية، ولم يدخل لبنان بمباركة أمريكية/إسرائيلية، ولم يذهب إلى مؤتمر مدريد «للسلام» مع «إسرائيل»، ولم يكن قاب قوسين أو أدنى من توقيع معاهدة سلام مع «إسرائيل» عام ٢٠٠٨، بل هو يعمل ليلاً نهاراً من أجل تحرير الجولان!

يقابل هذا الوجه من «اليسار» وجه آخر من «اليساريين» الذين تحالفوا مع الولايات المتحدة والقوى الإمبريالية، النقيض الموضوعي والكامل لليسار، في سياق عملية «التحوّل الديمقراطي» قبل الانتفاضات العربية وبعدها. وقد كان السبّاق في هذا الأمر

الحزب الشيوعيّ العراقيّ، الذي شارك في مجلس برير الذي نصّبته الاحتلال الأميركيّ في العراق، واستمرت شراكته في النظام السياسيّ الطائفيّ المميل للاحتلال بعدها. ثم لحق بنموذجه آخرون بعد عقد من الزمن، خصوصاً في ليبيا وسورية، دافعين تناقضهم إلى الأكمال عبر العمل مع الأنظمة التي طالما شخصوها بأنها «رجعية» و«عميلة»، ومع المجموعات الدينيّة والتكفيرية التي تناقض فكرياً وسياسياً مع اليسار... مع عدم اغفالنا أنّ هذا التحالف يجد جذوره الأولى في تحالفات يسارية سياسية سبقتها مع التيار الإسلاميّ «المعتدل» مثل الإخوان المسلمين.

## الكذب وانعدام المصدقية والتلفيق

في المسألة السورية تجلّى كذب «اليسار» وتلفيقه وتديسه، وأضح انعدام المشروع لديه، وبانت ميكانيكته البائسة: «إن كانت الولايات المتحدة تريد إزاحة بشار الأسد، فعلينا أن نسانده بغض النظر عمّا يمثله. إنها المؤامرة الإمبريالية». جميل! لكن، هل كان ينبغي علينا مساندة حسني مبارك حين خرج أوباما مطالباً بإياه بالتّحجّي؟ هذا هو المنطق الميكانيكيّ الردّ-فعلّي (=الرجعيّ) لـ«يسار»! وفي الجانب الآخر، ثمة «يسار» لا يقلّ تديساً: فهو، إذ يعجز عن تحقيق مشروعه «التقدميّ العلمانيّ»، لا يرى ضيراً من «التعاون» مع الأنظمة الرجعية العربية (كتطر والسعودية) أو بممثليها، أو «التعاون» مع حلف الناتو والقوى الإمبريالية الدولية (الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي)، أعداء اليسار الأساسيين.

## خاتمة: هل هذا «يسار»؟

ليس هذا يساراً. هذا خواء معرفي لا يستطيع أن ينتج خطاباً سياسياً منسجماً مع نفسه، ومع المنظومة التي يدعي الانتماء إليها. ما يوجد على الأرض هو تنظيمات «يسارية» وأفراد «يساريون» يشبهون في تركيبهم الأنظمة العربية: مدهنون ومداورون ويجيدون لعب السبع ورقات والمناورة والتآمر. أمناء عامون مدى الحياة يأتون بأبنائهم أو زوجاتهم ليورثوا الحزب. قاعمون للتيارات النقديّة وللتجديد. يتجنبون الفكر والمعرفة والفلسفة والقراءة. يتصلّون من البرنامج الاجتماعيّ. يستعينون بنقائضهم ويشرعونها: النظام الرسميّ العربيّ و«الدولة» القطرية من جهة، والرجعية العربية والإمبريالية من جهة أخرى.

الفشل هو النتيجة المنطقية لـ«مشروع» يقوم على أسس كهذه. هذا ليس يساراً. هذه مجموعة من الانفصامات والعقد. اليسار عندنا لم يولد بعد. وهذا مرتبط الأمل.

عمان

## هشام البستاني

قاصّ وكاتب من الأردن. له: عن الحب والموت (٢٠٠٨)، الفوضى الرتيبة للوجود (٢٠١٠)، وأزى المعنى... (بيروت: دار الآداب، ٢٠١٢). والصورتان ص ٦٦ لحميد موسى وهول برير.

(١) موفق محادين، «اللاجئون السوريون في الأردن»، العرب اليوم، ١٩/٦/٢٠١٢.